القدر

تأليف ج. شلر

كان ألويسيوس ابن رجل من عامة الشعب استطاع بجده أن يرقى الى وظيفة مرموقة في خدمة إحدى الشركات واستطاع أن يعلم ابنه تعليماً طيباً. وأبدى الابن قدرة رشحته لأن يصبح أحد رجال الأمير العسكريين. وكان شابّاً موفور الشباب قوي العاطفة جامحها جريئاً، وكذلك كان الأمير الذي وجّه نظره الى الشاب مشاركته اياه في ظروفه وطبائعه، وسرّه منه سرعة بديهته وجاذبيته وخفة روحه وسعة معارفه التي جعلت منه كعبة الأبصار، وموضع التقدير في كل اجتماع، وشاء أن يستفيد من خدماته، وقرّبه اليه وأضفى عليه من رعايته وثقته، فأوصله إلى درجة لم يكن يحلم بها المحنكون من الساسة والاداريين الذين قضوا حياتهم الا قليلاً في الرقي البطيء خطوة خطوة، حتى أصبح هؤلاء يحقدون عليه وينفسون عليه مكانته. إذ وكل اليه الأمير أمر تصريف شؤون امارته متفرغاً هو لملاذه وملاهيه، وأنعم عليه بلقب الوزارة، رغم أنه كان شابّاً لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره.

ولم يكن الشاب ذا تجارب في الحياة، وكان رقيه سريعاً، فلما رأى الأمراء وهم أعلا منه منبتاً، وأشرف منشأً، يتسابقون الى ارضائه ما وسعهم التسابق، حتى استيقظت كبرياؤه، واشتدّ صلفه، وامتدت مطامعه، فكثر أعداؤه، وكانوا أقوياء دهاة محنكين، يرقبون كل صغيرة وكبيرة يأتيها يحصونها عليه لتكون سلاحاً في أيديهم اذا دعا الأمر يشهرونه في وجهه ويقضون به عليه، لا سيما وأنه كان يختار معاونيه وأحباءه وأصدقاءه دون تحرٍّ عما اذا كانوا أهلاً لذلك، بل كان يختار لساعته حيثما اتفق. فمثلاً اختار الكونت جوزيف مارتنزو الايطالي ليكون في حاشية الأمير ليؤدي عنه واجبه في ارضاء نزوات الأمير وتوفير ملاذه وتحقيق ملاهيه. لأن ألويسيوس كان قد شغلته مهام الامارة عن أن يقوم بذلك الواجب.

ولم يكن الوزير ليخشى هذا الكونت وهو يعلم انه هو الذي رفعه الى تلك المكانة ، وانه هو الذي أحسن اليه . وأخذ الكونت يتقرب الى الامير تقرباً أدناه من قلبه ومن نفسه ، وجعله يرى فيه ضرورة لحياته ليس له عنها غنى فزادت أهميته . ولكنه كان دائماً يظهر الخضوع للوزير ، عاملاً على ألاّ يثير شبهته أو شكوكه في مقدار اخلاصه له ، وتفانيه في تقدير جميله عنده . ولم يترك فرصة تمر دون أن يغتنمها في الفوز بتقدير الامير ولو كان ذلك على حساب كرامته ورجولته ودينه ، إذ كان في سبيل ارضاء سيده يشاركه آثامه وفجوره في سهولة ويسر ، كأنما قد نشأ وهو كونت في مباءة فسق . وكان موفقاً في اخفاء مغامرات سيده وطمس معالمها . وكان هو الرجل الوحيد المطلع على أسرار الأمير . وعندئذٍ بدأ يعمل لنفسه على حساب هـذا الأمير الذي أصبح في يده ليصرفه كيف يشاء . كل هذا والوزير لا يدري شيئاً عن مبلغ ما وصل اليه الكونت من مكانة وسلطان .

وقد يبدو عجيباً أن يصل الكونت الى ما وصل اليه دون أن يعلم الوزير ، ولكن هذا كان يستبعد أن يصبح من رفعه بيديه مزاحماً له شديد الخطر عليه . وكان الكونت حريصاً كل الحرص على إخفاء خطراته عنه حتى يظل في أمان من انقلابه عليه . وأخيراً علم الوزير الأمر ، وعلم أن مثل ما حدث هو الذي كان يزوي بمن سبقوه في كرسي الوزارة ، فقلق كل القلق ، لا سيما وأنه كان قد اكتفى بما بلغه من نجاح ، فلم يعمل على ابقاء آصرة الود قوية تشده الى ركاب الأمير ، بل انشغل بالعمل الجدي من الامارة ، ولم يعبأ بالابقاء على ما قرّبه في أول أمره الى الامير .

ولم يكن الكونت ممن يقنعون بأن يكونوا تابعين أو مقودين . ولقد زادت مطامعه بازدياد نفوذه على الامير ، فثبت من دعائم سلطانه وإثارة كبريائه ، لاسيما عند ما كان الوزير يعمد الى امتهانه فيذكره بماضيه وبمن أسدى اليه هذه اليد ، حتى لم يعد يحتمل ما كان يلقاه من الوزير ، فصمم على أن يضرب ضربته ودبر الأمر سرّاً ، إذ كانت الشجاعة تنقصه لمجابهة الوزير بالعداء رغم أنه أصبح في مثل قوته ونفوذه .

* * *

ورأى الكونت الايطالي أن تكون ضربته قوية حاسمة ، وإلاّ راح هو ضحيتها . وساعدته الأقدار على الوقوف على سرّ مؤامرة كان الوزير يدبرها مع بعض الامراء المجاورين ضد الأمير الذي أحسّ أن الوزير أصبح خائناً لا يؤمن جانبه ، وأصبح واجباً عقابه والضرب على يده . واتفق مع الكونت على إجادة تدبير الأمر وجمع القرائن ضد الوزير .

وكان الويسيوس حاملاً كل الجهل عما كان يدبر له حتى اللحظة المؤلمة التي هوى فيها من حالق مجده الى الحضيض .

* * *

وفي اليوم المعلوم ، وكان يوم عرض عام للقوات العسكرية ، وكان الوزير يشغل مركزاً ممتازاً فيها ، ويعتمد على هذا المركز في تمكين مركزه السياسي ودعم نفوذه الاداري . وكان ذلك المظهر الفخم الذي تبدو فيه كبرياؤه حين يتملقه المتملقون من ذوي الأغراض والحاجات ، وحين يطل من سماء عظمته على أتباعه وأعوانه ممن رفعهم الى المراكز العالية وهم ملتفون حوله كالهالة حول القمر . ورآه الأمير على النحو الذي ذكرنا فعلم خطورة هذا الوزير عليه بعد إذ صار كوكباً تدور حوله الكواكب . وبينما كان الوزير الاول ينعم بمظهره ومجده ، جاءه الكونت وقد تغير حاله ، فلم يعد ذلك الوديع الخجول المؤدب مطأطىء الرأس حياء ، بل وقف أمام الوزير وقبعته على رأسه ، وخاطبه في جرأة ، وناداه باسمه المجرد من الالقاب ، وطلب منه أن يسلمه سيفه باسم الأمير ففعل ، وأخذ الكونت السيف وحطمه وألقى حطامه بين قدميه ، وعندئذ تقدم بعض الضباط الذين جاءوا مع الكونت من الوزير ونزعوا منه شاراته وأوسمته . والريشة التي كانت تزين قبعته . ولم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة ولم يرتفع صوت معارض واحد ، بل خيم سكون رهيب ، فوقف الأمراء والنبلاء صامتين ، وقد اصفرت وجوههم ، وزادت ضربات قلوبهم سرعة ، وكانت الدهشة تبدو واضحة على كل وجه . واحتمل الوزير ما حدث له في شجاعة وجلد .

واقتيد الويسيوس خلال صفوف النظارة حتى آخر الميدان حيث كانت تنتظره عربة مغطاة يحرسها فريق من الفرسان ، وانتشر النبأ في المدينة انتشار النار في الهشيم ، فتفتحت النوافذ ، وأطلت الوجوه على العربة التي كانت تحمل رجلاً هوى من قمة مجده .

وسارت به العربة حتى دار الحاكمة مدى سبع ساعات . وكان وحيداً لا مؤنس له ولا مراسي حتى انحطت قواه المعنوية ، وخارت قواه البدنية ، وغاب عن وعيه . ولما أفاق وجد نفسه في غرفة سجن مظلمة لا ينيرها إلا بضعة أسلاك من نور القمر ، تعبت بمرورها القضبان المتشابكة في النافذة الوحيدة بالغرفة . ووجد الى جواره خبزاً جافاً وإبريق ماء ، وبعض القش لينام عليه إذا ما دعاه داعي النعاس . وظل الامر على حالته حتى ظهر اليوم التالي عند ما فتحت طاقة في سقف غرفته ، ورأى فيها يدين تدليان له صفحاً به خبز كالذي وجده الى جواره في أمسه ، فأحس برغبة في نفسه للتساؤل عما جاء به الى هذا المكان

وأي مصير ينتظره . وسأل ولكنه لم يُجب، بل انسحبت اليدان، وأغلقت الطاقة، وعاد الى وحدته المريرة القاتلة التي قضى فيها قرابة خمسمائة يوم . واستطاع أن يعلم أن هذا السجن الذي يضمه بين جدرانه إنما هو من صنعه أمر بإنشائه منذ عهد قريب ليعزل فيه أحد الضباط لا لذنب إلا أنه كان قد أساء إليه، وأن هذا الضابط قد أفرج عنه، بل وصار حاكم السجن .

ولحسن حظه لم يشأ حاكم السجن أن ينتقم منه، وقد أتى به القدر بين يديه، مهيض الجناح مسلوب القوة، بل وساءه أن يناط به تعذيب الاسير، ولكنه لم يبدأ أن يتنحى عن أداء ما كلف به نحوه، لأن النظام العسكري كان يقضي عليه بذلك . إلا أن قلبه كان رحيماً بالرجل فوكل أمره الى أحد مساعديه وهو واعظ السجن . ورأى هذا الواعظ الصالح أن من واجبه أن يخفف آلام السجين ويواسيه، وقد ندر عليه أن يحرم كل رحمة . ولكن ادارة السجن لم توافقه على ما ذهب إليه من تفكير، فقصد العاصمة وقابل الامير وسجد بين يديه . وناشده الرحمة والسماح له بأداء رسالته مع السجين على النحو الذي رآه إذ أنه أصبح مسئولاً عن نفسه وروحه، فمن واجبه أن يطهرها حتى اذا غادر الرجل الدنيا غادرها وقد عرف سبيل الله . وابعد جهد عنيف سمح له الأمير بذلك .

* * *

وكان وجه الواعظ أول وجه إنسان رآه الويسيوس منذ ستة عشر شهراً وكان بليغاً في التعبير عن مبلغ فرحه وتقديره لجميل ذلك الواعظ صديقه الوحيد بين العالمين . والذي لم تستطع الايام أن تعن عليه عقله، وقد كانت الدنيا تحت قدميه . أما الواعظ فقد ارتاع لمرآه لأنه لم ير بشراً كما كان يظن بل رأى ميكلاً لا يكاد يتماسك زاحفاً اليه على قدميه ويديه، ولولا بريق عينيه لظنه الواعظ بقايا ميت متحركة . لقد ذهب بكل ما كان فيه اليأس والأسى . وطال شعره كما طالت أظافره فأصبح يحكي الاشخاص الخرافيين التي يخيفون بها الاطفال .

وكان حجر ذلك الجحر الذي كان يعيش فيه قاسياً يقتل الاصحاء . وأسرع الواعظ الى الحاكم والتمس منه يداً أخرى لذلك السجين تخفف آلامه حتى يكون لوعظه وارشاده أثر . ولما كان هذا يتعارض مع التعليمات التي يتلقاها الحاكم في شأن هذا الاسير، فقد رأى الواعظ ألا مندوحة له من الذهاب الى العاصمة ليلتمس من الأمير أن يخفف عن

السجين بعض آلامه ، بعد أن بلغ ما بلغه من انحطاط واضمحلال ، فسمح الامير بذلك ، وهكذا تحسنت ظروف الوريبوس وتحسنت حاله .

وفي الأعوام التالية لم يجد العذاب الذي كان يلقاه في أعوامه الاولى،لاسيما وقد طرحت الايام بالوزير الذي خلفه وأعقبه في ذلك المركز آخرون كانوا أكثر السامحة،واقل رغبة في الانتقام منه . ومرت عشرة اعوام على الرجل في سجنه دون ان يقدم الى المحاكمة وانتهى به الامر الى أن أنعم عليه الأمير باطلاق سراحه ، على ان يغادر ارض الامارة،فغادرها الى أمارة أخرى ، وانخرط في سلك الجندية وزرته مواهبه العسكرية فترقى في سرعة حتى ارتفع نجمه وتألق سعده . أما الامير فقد كانت نفسه،قد تغيرت فأصبح إنساناً لكل الناس،له قلب،وله عاطفة،وودعته كبرياؤه وصلفه ، والتمسح بالتواضع والتقى ، وابيض شعره، وأفزعته رهبة القبر ، وذكر صديق شبابه وتنكيله به ، فبعث إليه أن عد إلينا فتعيد عليك ما كنت فيه ، ونداوي جراحك ، ونعوض عليك ما فاتك منا . وكانت بالوريبوس رغبة ملحة في العودة الى وطنه فعاد وأحسن الامير استقباله ، ولكن هذا الاستقبال على روعته كان مؤلماً ، فان الامير أخذ يمعن النظر فيه كأنما ينكره ، أو يفتش عن ظاهرة في وجهه تذكره به ، وأخذ يعدّ تجاعيد وجهه التي كان له الفضل الاول في وجودها .

كان الاستقبال حاراً ولكنه كان ظاهرياً لا اخلاص فيه فان الثقة كانت قد فقدت وإذا ما فقدت الثقة ، فليس الى استعادتها من سبيل . كان كلاهما يخجل من الآخر ويخافه . وشاء الامير أن يرضي ضميره،فأعاد الى الوزير مكانته ومجده ، ولكنه لم ينجح في اكتساب حبه ، وصدق ولائه ، وقد كانتا أصدقتين ربطات بينهما في الماضي.واحس هذا وتمكن منه هذا الاحساس،فظل حزيناً آسفاً الى ان مات .

* * *

أما الوزير فلم تكن التجارب التي مرت به قد غيرت من صفاته أو أخلاقه ، بل ظل كما كان في أبان قوته ، وعنفوان سطوته ، ووافته منيته ، دون أن يندم على قسوة أبداها او ظلم أتاه ، بل كان كلما ذكر ما حلّ به زاد غلظة وقسوة وظلماً كأنما كانت الذكرى وقوداً لعاطفته المتأججة ، وزاد لانتقامه من رمام تحت رحمته القدر .

[مترجمة] عبد المنعم صادق